**برنارد لويس ومقالته "جُذورُ الغَضبِ الإسلاميّ"**

**برنارد لويس(Bernard Lewis) مستشرقٌ بريطانيُّ الأصل، ولد في لندن عام1916م، يهوديُّ الديانة، صهيونيُّ اللحمِ والدم، أمريكيّ الجنسية. تخرّج في جامعة لندن عام 1936م، ودرس في باريس، وتتلمذ على لوي ماسينيون، وهاملتون جب. عمل أستاذاً في التاريخ في مدرسة الدراسات الشرقية الإفريقية ـ جامعة لندن. ثم انتقل إلى قسم دراسات الشرق الأدنى بجامعة برنستون عام 1973م. درس الآرامية والعربية واللاتينية واليونانية والفارسية والتركية.**

**تخصص لويس في التاريخ الإسلامي، فكتب عن الإسماعيليين، والفاطميين، والقرامطة، والعثمانيين. وله عناية خاصة بتاريخ الشرق الأوسط. ولويس ـ على الدوام ـ لا يرى العلاقة بين الإسلام والغرب أو المسيحية إلا بمنظار الصراع الدائم، والمنافسة البغيضة، والحقد المكتّم. ولويس أوّل من استخدم مصطلح "صراع الحضارات". وتعد مقالته(جذور الغضب الإسلامي) الأساس الذي اعتمد عليه صموئيل هنتنغتون في كتابه "صراع الحضارت وإعادة صنع النظام العالمي الجديد".**

**ما من ريبٍ أن لويس كاتبٌ، ذائع الصيت، غزير العلم، ألمعيٌّ. كتُبُه ـ غيرَ شك ـ ذاتُ رواج وانتشار، سبيلُها في التأثير في العقول والنفوس سبيلُ السحر. فالأسلوب التي كتبت به ذو رونق وجمال. وما أسهل أن يقع القارئ ـ إن لم يكن على علم وتيقّظٍ وحذر ـ في شراك آرائه وأفكاره. وقد أشرت آنفاً أن برنارد صهيوني بحت، هواه أمريكي، سخّر ما كتبه لتحقيق مآرب الصهاينة، والأمريكيين في منطقة الشرق الأوسط. والسياسةُ الأمريكية تستنير بآرائه ونصائحه، وتقدُرها حقّ قدرِها.**

جذورُ الغضبِ الإسلاميّ **The Roots of Muslim Rage:**

**صدرت مقالةُ "جذور الغضب الإسلامي" لبرنارد لويس في أيلول 1990م في Atlantic Monthly وقد طارت هذه المقالةُ في الخافقين، وبلغتِ الغايةَ في الشهرة، لأنّ كاتبها برنارد لويس، ولأنّها الأساسُ الذي توكّأت عليه مقالةُ صموئيل هنتنغتون "صراع الحضارات" المنشورة في مجلة الشؤون الخارجية Foreign Affairs، عام 1993م، والتي غدت فيما بعدُ على هيئة كتاب، وهو "صراع الحضارات، وإعادة صنع النظام العالمي الجديد." عام 1996م.**

**يحلّل لويس في مقالته الباغية الأسبابَ الموجبة للحنق والغضب الإسلامي على الغرب عامةً، والولايات المتحدة خاصةً، ويحاول أن يشبكها بجذور الكراهية والصراع بين الإسلام، والمسيحية، الصراع الذي مضى عليه ما يربو على ألف عام. ويفنّد أيضاً من وجهة نظره أسباب الحنق، ليقنع القارئ في النهاية أنّ هذه المشكلة ناجمةٌ من قلب الإسلام ذاته، وأن الغربَ عليه سِيمياءُ البراءة، واللين، والمسكنة، وهو طبعاً يقف موقف الرد عليها، والصدّ لها. هذا هو لبّ مقالته وهدفها، ومحورها. وقد علّقتُ في الهامش على الافتراءات، والضلالات، والتعميمات الفاسدة التي تضمنتها المقالة، وكشفت ما فيها من زورٍ وبهتان.**

**وقبل قراءة المقالة، أضع بين يدي القارئ كلاماً، مهمّاً، ودقيقاً عنها، وعن آثارها السلبية، للأستاذ الدكتور جون إسبوزيتو «كان برنارد لويس هو الذي قدّم الصورةَ للإسلام والمسلمين على نحوٍ لافتٍ للنظر باعتبارهم أصوليين، مقاتلين، خطِرين في كتابه "الأصولية الإسلامية" الذي كان في أصله محاضرةً، ألقيت سنة 1990م باسم: محاضرة جيفرسون المهمّة، وهو أعلى شرف تسبغه حكومة الولايات المتحدة على أيّ باحثٍ تقديراً لإنجازاته في مجال الدراسات الإنسانية. ثم نشرت صورة منقحة من المحاضرة تحت عنوان" جذور الغضب الإسلامي" لتكون المقالة الرئيسية فيAtlantic Monthly ويمثل تغليف جذور الغضب الإسلامي(العنوان الجديد، وغلاف المجلة، والصورتان المنشورتان مع المقالة) مزالقَ التقديم الانتقائي. إذ إنه يعزّز الأنماط الشائعة عن المسلمين، والأصولية الإسلامية، ويهيّئ القارئَ سلفاً لأن يرى علاقة الإسلام بالغرب في ضوء الغضب، والعنف، والكراهية، واللاعقلانية. وبسبب مكانة لويس الدولية باعتباره باحثاً، ومعلقاً سياسياً على الشرق الأوسط، فإنّ موضوعَه و منصته العامة البارزة "جذور الغضب الإسلامي" لقي تغطية واسعة على الصعيد المحلّي والدولي. وكان له أثرٌ على الفهم الغربي للإسلام المعاصر، وعلى الفهم الإسلامي للكيفية التي يرى بها الغربُ الإسلامَ والمسلمين. كانت رسالة العنوان جذور الغضب الإسلامي، وأثرها قد تعزّزت بالغلاف الخارجي لمجلة أتلانتك منثلي، التي صوّرت مسلماً، متعمماً، ملتحياً، متجهماً، وفي عينيه المتوهجتين أعلامٌ أمريكية. وقد انضمت إلى موضوعِ التهديد ونغمةِ المواجهة الصورتان التوضيحيتان، اللتان صاحبتا المقالة، وهما تقدّمان الفهمَ الإسلاميّ لأمريكة باعتبارها عدوّاً بشكل واضح الزيف. إذ إن الصورة الأولى عبارة عن حيّةٍ، مرقومة بالنجوم، والشرائط تعبر الصحراء (أي هيمنة أمريكة أو تهديدها للعالم العربي). أما الصورة الثانية فهي توضح الحيّة كامنة وراء مسلمٍ، متديّن، يؤدي الصلاة،وهو آمنٌ كما لو كانت على وشك مهاجمته. هاتان الصورتان روّجتا للأنماط، الشائعة، المثيرة، والمهيّجة، وكان القصد منهما استفزازَ القارئ لتعزيز النظرة القاصرة إلى الحقيقة. إذ تمّ تصوير المسلمين في الزيّ التقليديّ، ملتَحين، ومتعمّمين، على الرغم من حقيقة أن معظم المسلمين (ومعظم الأصوليين) لا يلبسون بهذه الطريقة. هذه الصورة ترسم الناشطين الإسلاميين في صورة مَن يعيشون في العصور الوسطى من حيث أسلوبُ حياتهم وعقليّتهم.**

**وعنوانُ جذور الغضب الإسلامي يضع نغمة ويخلق توقّعاً، فهل يحقّ لنا أن نتسامح إزاء مثل هذه التعميمات في تحليل، وشرح النشاطات، والدوافع الغربية؟ هل نرى مقالاتٍ تتحدث عن الغضب المسيحي، أو الغضب اليهودي؟.... ومعظمُ المناقشة عن التهديد الإسلامي أو جذور الغضب الإسلامي تحتوي على نَدرة مذهلة في المعلومات، ونقصٍ في التمييز بخصوص طبيعة، وتنوّع التجديد الإسلامي. ففي مقالة جذور الغضب الإسلامي يشرح لويس جذورَ الغضب المسلم بيدَ أنه لا يحدّد أولئك المسلمين الغاضبين، ويفشل في الاعتراف بأنّ التنظيمات، أو الناشطين الإسلاميين ـ على الرغم من اشتراكهم في التزام إيديولوجيٍ عام ـ يختلفون فيما بينهم. وهو يذكر قليلاً تنظيمات بعينها، ويضمِّن مقالته مناقشة هزيلة للتعليم والخلفيات الاجتماعية، والنشاطات (غير العنف والإرهاب) التي يقوم بها أعضاؤها».([[1]](#endnote-1))**

**ويقول إدوارد سعيد عن مقالتي لويس وهنتنغتون بأنهما تقدّمان «بثقةٍ تصل إلى حدّ التهوّر تصوّراً مسبقاً لكيانين، هائلين، يحفلان في داخل كل منهما بالكثير من التمايز والتضارب؛ هما الإسلام والغرب، لكي يحوّلهما إلى ما يشبه شخصيتين في أفلام الكارتون(بوب آي، وبلوتو) في عراكهما المستمرّ الذي ينتهي دوماً بانتصار الشخصية الطيبة. ولا يجد هنتنغتون أو لويس متّسعاً من الوقت لدرس الحركيات الداخلية في كل من الحضارات، وما فيهما من التعددية، أو إلى أنّ التنافس الرئيسي في غالبية الثقافات الحديثة يدور على تعريف، أو تفسير كل من الحضارات. كما لا يعيران انتباهاً إلى أمرٍ خطير، وهو أن التنطّع للكلام عن حضارة، أو ديانة بأكملها ينمّ عن الكثير من الديماغوجية([[2]](#endnote-2))، والجهل. كلا، الإسلام بالنسبة لهؤلاء هو الإسلام، والغرب هو الغرب. لهذا يقول هنتنغتون: إن التحدي أمام صانعي السياسة الغربية ضمان تزايد قوة الغرب لكي يستطيع صدّ كل الآخرين، خصوصاً الإسلام».([[3]](#endnote-3))**

ترجمة المقالة([[4]](#endnote-4))

 **لماذا ينقِم المسلمون بشدّة على الغرب، ولماذا ليس من السهلِ لانزعاجهم أن تخفّ حدّتُه؟**

**لاحظ توماس جيفرسون([[5]](#endnote-5)) (Thomas Jefferson) في إحدى رسائله أنه عندما يتعلق الأمر بالدين فإنه ينبغي أن تُعكس حكمةُ الحكومة المدنية، وأن نقول ـ عوضاً عن ذلك ـ: "مقسَّمين نقفُ، و متّحدين نقع". في هذه الملاحظة، أعلن جيفرسون، بهذا الإيجاز البليغ، عن فكرة عُدّت على نحو أساسيٍّ أمريكيةً: وهي الفصلُ بين الكنيسة والدولة. هذه الفكرة لم تكن جديدة تماماً، فقد كان لها سوابقُ في كتابات إسبينوزا([[6]](#endnote-6)) (Spinoza)، ولوك([[7]](#endnote-7)) (Locke)، وفلاسفة عصرِ التنوير الأوروبيّ. إنما أُعطي المبدأُ في الولايات المتحدة ُ سلطةً قانونية، وأصبح، تدريجياً، واقعاً خلال قرنين.**

**إذا كانت فكرةُ أنّ الدين والسياسة ينبغي فصلهما هي جديدة نسبياً، وتاريخها يعود إلى ثلاثمئة عام، فإنّ فكرةَ تمييزِهما تعود تقريباً إلى بداية المسيحية. المسيحيون مأمورون في كتابهم المقدس بأن يعطوا ما لقيصر لقيصر، وما لله لله.([[8]](#endnote-8))**

**اختلفت الآراء في المعنى الدقيق لهذه العبارة، لكنها فُسِّرت عموماً على أنها شَرعَت حالةً يعيش ضمنَها مؤسستان جنباً لجنب، كلٌ له قوانينه، وسلسلته السلطوية. وبما أنهما اثنان فقد يتم بينهما اتصالٌ، أو انفصالٌ، تبعيةٌ أو استقلاليةٌ. وربما تنشأ بينهما صراعاتٌ على قضايا الفصل بين الحدود وحقوق سن القوانين والأحكام.**

**صياغةُ المشاكل التي تقدّمها العلاقاتُ بين الدين والسياسة، وكذا الحلولُ الممكنة لها ـ تنشأ من التجارب والمبادئ النصرانيةِ،لا العالميةِ. هناك تقاليدٌ دينية أخرى يتم فيها تصوّرٌ مختلف بين الدين والسياسة، وبناءً عليه تختلف المشاكل، وحلولها الممكنةُ اختلافاً جذرياً عما نعرفه نحن في الغرب. جلّ هذه التقاليد ـ مع بلوغها مستوىً متقدّماً من المهارة، والخبرة، والإنجازات ـ بقيت أو أصبحت محليةً، محدودةً بإقليم، أو ثقافة جماعةٍ من الناس. ثمتَ تقليدٌ واحد، وهو الذي بانتشاره الواسع الأرجاء، وحيويته المستمرة، وطموحاته العالمية، يقارن بالمسيحية، ألا وهو الإسلام.**

**الإسلام واحدٌ من أعظم الأديان، دعني أوضّح ما أعني بذلك، وأنا مؤرخ متخصص بالإسلام ولست مسلماً. منحَ الإسلامُ الإنعامَ، وهدوء البال لملايين لا تعدّ من الرجال والنساء.**

**وكذا رفعةً ومعنىً لعيشٍ أغبرَ، مدقعٍ. علّم الإسلام الناسَ ذوي الأجناس المختلفة أن تعيش معاً في رحاب الأخوة، والناسَ أصحابَ العقائد المتباينة أن تعيش في ظل تسامح مرضيٍّ. جعل حضارةً عظيمة عاش فيها آخرون ـ مع المسلمين ـ حياة ذات إفادة وإبداع. حضارة أغنت بإنجازاتها العالم بأسره. لكن الإسلام ـ في مراحل معينة ـ أوحى لبعض أتباعه بحالة من الكراهية والعنف. و من سوء حظنا أن جزءاً من العالم الإسلامي ـ وليس كلَّه أو أكثرَه ـ يمرّ الآن بمرحلة من هذا النوع، وأن جُلّ الكراهية ـ وليس كلَّها ـ موجهةٌ ضدنا. لا يصح أن نبالغ في أبعاد المشكلة، لأن العالم الإسلامي ليس مُجْمِعاً على رفض الغرب، ولم تكن الأقاليمُ المسلمة في العالم الثالث هي الأكثرَ حدّةً، وتطرّفاً في كراهيتها.**

**يوجد في بعض المناطق أعداد من المسلمين، ذووا شأنٍ ـ وربما كانوا أكثرية ـ نشاطرهم طموحاتٍ، واعتقادات، سياسية واقتصادية، وأخلاقية وثقافية معينة. ولا يزال هناك حضورٌ غربيٌ كبير(ثقافي، اقتصادي، دبلوماسي) في الأراضي الإسلامية، التي بعضها حلفاء للغرب. ومن المؤكد أن السياسة الأمريكية لم تعانِ ـ في العالم الإسلامي(الشرق الأوسط أو مكان آخر) من مصائب، أو صادفت مشاكلَ بالمقارنة مع ما يماثلها في جنوب شرق آسيا، أو وسط أمريكة. إذ ليس في العالم الإسلاميّ كوبا، ولا فيتنام، كما أن القوات الأمريكية لم يكن لها فيه ارتباطٌ، لا على صفة المحاربة، ولا حتى صفة الاستشارة.**

**لكن توجد ليبيا، وإيران، ولبنان، وكذلك سَورةٌ من الكراهية التي تزعج وتفزع وـ الأهمّ من ذلك ـ تعيق الأمريكيين. تذهب أحياناً هذه الكراهية مذهباً، أبعدَ من العداء لسياساتٍ، أو إجراءات، أو مصالح محددة، أو حتى بعض الأقطار، وتصبح رفضاً للحضارة الغربية بحدّ ذاتها، ليس فقط لما تقوم به، إنمّا لِما هي عليه، ورفضاً للمبادئ، والقيم التي تزاولها وتصرّح بها. بالفعل، إن هذه الأمور يُعتقد أنها شرٌّ بالغريزة، وأنّ أولئك الذين يروّجونها، أو يقبلونها هم "أعداء الله". وهذه العبارة[أعداء الله] التي تتردد كثيراً في لسان القيادة الإيرانية، (في إجراءاتها القضائية، وتصريحاتها السياسية) تبدو حتماً مستغربةً عند الأجنبيّ، الدينيّ والعلمانيّ على حدّ سواء. إنه يصعب قليلاً فهمُ فكرةِ أن الله لديه أعداء،وأنه يحتاج إلى معونةٍ بشريةٍ لكي يعرفهم ثم يتخلص منهم. لكن هذا الأمر ليس غريباً.**

**ففكرةُ أعداء الله معروفةٌ في العصور القديمة الكلاسيكية، وما قبلها، وفي العهدين القديم والجديد، والقرآن أيضاً. توجد رواية لهذه الفكرة ـ أوثقُ صلة ـ في أديان إيران الثَنَويةِ القديمة، التي افترضت فيها نشأة الكون قوتين عظيمتين، لا قوة واحدة. الشيطان عند الزرادشتيين ـ خلافاً له عند اليهود، والمسلمين، والمسيحيين ـ ليس واحداً من مخلوقات الله الذين يؤدّون بعض مهمات الله الأكثر غموضاً، وإنما هو قوّة مستقلةٌ، قوة عليا من الشرّ منهمكةٌ في صراعٍ كونيٍّ مع الله. كان لهذا الاعتقاد أثرٌ في أعداد من الفرق اليهودية، والمسلمة، والنصرانية، عن طريق المانوية [الإيمان بوجود إلهين]، وقنوات أخرى. دين المانويين المنسيّ تقريباً أدّى اسمه إلى إدراك المشاكل على أنها صراعٌ خالص، وشديد بين قوى متماثلة بين الخير المحض، والشر المحض.**

**والقرآن بالطبع يدعو إلى التوحيد على نحوٍ صارم، ويقرّ بربٍ واحد، وبقوةٍ واحدة شاملة. يوجد صراع في قلوب البشر بين الخير والشر، بين الأوامر الإلهية والمغريات، لكن هذا يُرَى صراعاً قد قدّره الله، ونتائجه مقدرةٌ منذ الأزل. وهو ابتلاء للناس، وليس صراعاً يقوم فيه البشر بدور مهم لجلب نصرة الخير على الشر، كما الحال في بعض الأديان الثنوية القديمة. لكن الإسلام ـ كما الشأن مع اليهودية والنصرانية ـ بالرغم من وجود التوحيد فيه، قد تأثر في مراحل عدة بالفكرة الثنوية ـ في إيران بخاصة ـ للصراع الكوني للخير والشر، الضياء والظلام، النظام والفوضى، الحق والباطل، الرب والعدو، المعروف بأسماء متنوعة كالشيطان، إبليس، وأسماء أخرى.**

ظُهورُ أرضِ الكُفر:

**سُرعانَ ما اكتسب الصراعُ بين الخير والشر في الإسلام أبعاداً سياسية، وعسكرية أيضاً. نذكّر بأن محمداً لم يكن رسولاً ومعلّماً فقط، مثل مؤسسي الأديان الأخرى؛ كان أيضاً رئيسَ دولةٍ وأمة، وحاكماً وجندياً، ولذا ارتبط صراعه بالدولة وقواته المسلحة. وعندما يقاتل المقاتلون في الحرب لأجل الإسلام: "الحرب المقدسة في سبيل الله([[9]](#endnote-9))"، يلزم منه أن أعداءهم يقاتلون ضدّ الله. وبما أنّ الله ـ من حيث المبدأ ـ هو الحاكمُ المطلق (القائدُ الأعلى للأمة الإسلامية)، وأن النبيَّ، ومِن بعده الحكّامُ هم خلفاء الله، فإنّ الله إذنْ ـ من حيث هو الحاكم ـ هو الذي يأمر الجيش. الجيش هو جيش الله، والأعداء هم أعداء الله. وواجبُ جنودِ الله أن يرسلوا أعداءه بأسرع ما يمكن إلى مكانٍ يحل عليهم فيه العقاب الإلهي، بعبارة أخرى: إرسالهم إلى الآخرة.([[10]](#endnote-10))**

**ومما يرتبط بهذا على نحو واضح هو التقسيم الأساسي للعالم، كما يراه الإسلام. غالب المجتمعات الإنسانية، وربما كلّها، لديها نهجٌ ما في التمييز بين نفسها وبين الآخرين: الداخل والخارج، جماعة داخلية (ذات امتيازات خاصة) وجماعة خارجية، رجل ذو قرابة، أو جار، أو أجنبي. هذه التعريفات لا تحدّد الخارجَ فقط، وإنما تساعد على تحديد وتوضيح فهمنا لأنفسنا.**

**العالم من وجهة النظر الإسلامية الكلاسيكية، التي شرع المسلمون يعودون إليها، مقسوم إلى قسمين: دار الإسلام، حيث تسود والشريعة العقيدة. والباقي، المعروف بدار الحرب، التي مهمة المسلمين أن يجلبوها في النهاية إلى الإسلام.([[11]](#endnote-11))لكنّ الجزء الأكبر من العالم لا يزال خارج الإسلام، بل إنّ عقيدة الإسلام حتى داخل الأراضي الإسلامية ـ وفقاً لما يراه المتشدّدون المسلمون ـ قد وَهِيَ أساسُها، وكذا الشريعة قد نُسخت.**

**وبناءً على هذا فإنّ فرضَ الجهاد يبدأ من الداخل، و يستمرّ في الخارج، ضد ّالعدو الكافر نفسه. مثل أيّ حضارة أخرى معروفة في تاريخ البشرية، رأى نفسه العالم الإسلام ـ في أيام مجده ـ مركزَ الحق والتنوير، وقد أحيط بالبرابرة الكفّار الذين سوف ينوّرهم ويُمَدّنهم في الوقت المناسب. لكن كان هناك فرق حاسم بين جماعات البرابرة المختلفة. البرابرة في الشرق والجنوب كانوا مشركين، وعبّاد أصنام، لا يُخشى منهم أيّ تهديدٍ خطير، ولا منافسة للإسلام. أما في المقابل شمالاً وغرباً، فقد عرف المسلمون، منذ البداية منافساً حقيقياً، ديناً عالمياً منافساً، حضارةً بارزة، تستمدّ الإلهامَ من ذاك الدين، وإمبراطورية لم تكن بأقل طموحاً في مطالبها وأهدافها، مع أنها كانت أصغير بكثير من إمبراطوريتهم. كان هذا الكيان معروفاً عند نفسه والآخرين بالعالم المسيحي، اسم كان تقريباً متماثلاً مع "أوروبة" لوقت طويل.**

**استمرّ الصراع بين هذه النظم المتنافسة أربعة عشر قرناً، بدأ مع قدوم الإسلام في القرن السابع الميلادي، واستمرّ تقريباً إلى الوقت الحاضر. وتألّف الصراع من سلاسل طويلة من الهجوم، والهجوم المضادّ، الجهاد والحروب الصليبية، الفتوحات واسترداد الفتوحات.([[12]](#endnote-12))كان الإسلام، لمدّة ألف عام، في تقدُّم، والعالم المسيحي في تراجُع، وتحت التهديد. فَتحت العقيدةُ الجديدة الأراضيَ المسيحية القديمة في الشرق وشمال أفريقيا، وغزت أوروبة، وحكمت لبعض الوقت صقلّية، وإسبانية، والبرتغال، وأجزاء من باريس أيضاً. المحاولة التي قام بها الصليبيون لاستعادة الأراضي المفقودة من العالم المسيحي في الشرق كانت توقفت وانحسرت.**

**وحتى خسارة المسلمين في حنوب غرب أوروبة أمام حروب الاسترداد قد عوّضه على نحو كافٍ التقدمُ الإسلاميّ في جنوب شرق أوروبة، الذي وصل مرتين حتى فيينا. لمدة ثلاثمئة عام، منذ إخفاقِ الحصار التركيّ الثاني لفيينا عام 1683م، ونشوءِ الإمبراطوريات الاستعمارية الأوروبية في آسية وأفريقية، والإسلامُ في موقع الدفاع، والحضارة المسيحية وما بعدها في أوروبة ومستعمراتها جعلتِ العالمَ كلَّه ـ بما فيه الإسلام ـ في مدارها.**

**لا يزال هناك منذ وقت مَدٌّ متنامٍ من التمرّد ضد السيادة الغربية، ورغبةٌ في الاعتراف بالقيم الإسلامية، وعودة العظمة الإسلامية. مُنيَ المسلم بمراحل متتابعة من الهزيمة:**

**الأولى: خسارته السيطرةَ على العالم، لصالح القوة التوسعية لروسيا والغرب.**

**الثانية: إضعاف سلطته في بلده عن طريق غزو الأفكار والقوانين الأجنبية، وطرق المعيشة، و حكام أو مستوطنين أجانب أحياناً، وحق الانتخاب لأناس غير مسلمين من أهل البلد.**

**الثالثة: -وهي ثالثة الأثافيّ -: التحدّي لسيادته في عُقر داره،(نساء متحررات، وأولاد متمردون)، أمرٌ لا يكاد يحتمل. فسَوْرة الغضب ضدّ هذه القوى المعادية، والكافرة والغريبة التي قوّضت سيادتَه، ومزّقت مجتمعه، واخترقت حِمَى بيته كان أمراً محتّمَ الحصول. ومن الطبيعي أيضاً لهذا الغضب أن يوجَّه على نحو رئيسي ضدّ العدو الذي مضى على الصراع معه ألف عام، وأن يستمدّ الغضب قوته من الاعتقادات والولاءات القديمة.**

**أوروبة ومستعمراتها؟ قد تبدو هذه العبارة غريبة للأمريكيين الذين عرّفت عادةً أساطيرُهم القومية ـ منذ بداية قوميتهم و قبلها أيضاً ـ هويَتها في مقابل أوروبة، على أنها شيء جديد، ومختلف كلياً عن الطرق الأوروبية القديمة. لكن هذه ليست الطريقة التي رآها الآخرون، ليس على الأغلب في أوروبة وبالكاد في مكان آخر.**

**ومع أن ناساً ذوي أجناس،وثقافات أخرى شاركوا في اكتشاف، و إيجاد أمريكة دون اختيار منهم على الأغلب، إلا أنها كانت ـ وظلت في عيون بقية العالم طويلاً ـ مشروعاً أوروبياً، سيطر فيه الأوروبيون، ومنحوه لغاتهم، وأديانهم، والكثيرَ من طرق معيشتهم. كانت الهجرة الطوعية إلى أمريكة أوروبيةً، على نحو حصريٍ تقريباً. بالطبع كان هناك أناسٌ أتوا من الأراضي المسلمة في الشرق الأوسط وشمال أفريقية، القليل منهم مسلمون، والأكثر كانوا أعضاء في أقليات نصرانيةٍ، و ـ إلى حد أقل ـ يهوديةٍ في تلك البلدان. ومغادرتهم باتجاه أمريكة ووجودُهم اللاحق فيها لا بد أنه كان قوّى ـ ولم يقلل ـ الصورةَ الأوروبية لأمريكة في عيون المسلمين.**

**في أراضي الإسلام، عُرف اليسير من المعلومات عن أمريكة. بدايةً أثارت رحلاتُ الاكتشاف بعض الاهتمام، والنسخةُ الوحيدة الباقية من خريطة كولومبس الخاصة لأمريكة هي ترجمة تركية، واقتباس جديد عنها، وهي محفوظة في متحف قصر طوب كابي، في إسطنبول.**

**وصْفُ اكتشافِ العالم الجديد، لجغرافيٍّ تركي عاش في القرن السادس عشر، المعنون بـ "تاريخ الهند الغربية" (The History of Western India) كان من أوائل الكتب المطبوعة في تركية. لكن فيما بعد، يبدو أن الاهتمام قد تضاءل، وليس هناك الكثير الذي يقال عن أمريكة في اللغة التركية، والعربية، واللغات الإسلامية الأخرى حتى وقت متأخر نسبياً. كتب سفيرٌ مغربي كان في إسبانية في ذاك الوقت ما يوجب بالتأكيد أنه أوّل وصف عربي للثورة الأمريكية. وقّع سلطانُ المغرب معاهدةَ سلام وصداقة مع الولايات المتحدة في 1787م، وفيما بعد، قامت الجمهورية الجديدة بعدد من المعاملات مع الولايات الإسلامية: بعضها ودّي، وبعضها عدائي، وجلها تجاري.**

**الثورة الأمريكية والجمهورية الأمريكية التي أحدثتها الثورة بقيتا لوقت طويل غير ملاحظتين ولا معروفتين. حتى الحضورُ الأمريكيُّ القليلُ، لكن المتزايد، في الأراضي الإسلامية في القرن التاسع عشر الميلادي (من تجار، وقناصل، ومبشرين، وأساتذة) أورث حبَّ الاطلاع، أو لو يورث شيئاً، وهو تقريباً غير مذكور في الكتابات، والمجلات الإسلامية في ذاك الوقت.**

**الحرب العالمية الثانية، وصناعة النفط، وتطورات ما بعد الحرب جاءت بالعديد من الأمريكيين إلى الأراضي الإسلامية. أعداد متنامية من المسلمين أتت أيضاً إلى أمريكة، بداية طلاباً، ثم أساتذةً، أو رجال أعمال، أو زائرين آخرين، وفي النهاية مهاجرين. قدّمت السينما و لاحقاً التلفاز طريقةَ المعيشة الأمريكية، أو على الأقل نمطاً معيناً منها أمام ملايين لا تحصى، كان اسم أمريكة لديها لا معنى له، أو مجهولاً. أصنافٌ منوعة جداً من المنتجات الأمريكية ـ خصوصاً في السنوات المباشرة لما بعد الحرب ـ عندما كانت المنافسة الأوروبية أزيلت تقريباً، والمنافسةُ اليابانية لم تظهر بعد، قد وصلت [أي: هذه الأصناف] إلى أبعد الأسواق في العالم الإسلامي، مكتسبة زبائن جدُداً، ومنشئةً ـ وربما هذا أهم بكثير ـ أذواقاً و طموحات جديدة. رأى البعض أن أمريكة قدمت الحرية، والعدل، والفرص، واعتقد الكثيرون أنها قدمت الثروة، والقوة، والنجاح، في حين لم تكن فيه هذه الخصال تعتبر آثاماً أو جرائم. وبعد ذلك جاء التغيير الكبير، عندما بحث قادة الإحياء الديني الواسعِ الانتشار وعرّفوا أعداءهم على أنهم "أعداء الله"، وأعطوهم مكاناً محلياً، واسماً في نصف الكرة الغربي. وفجأة، أو كذا بدا، أضحت أمريكة العدو الأكبر، ومثال الشر، والعدو الخبيث جداً لكل ما هو خير، وتحديداً للمسلمين والإسلام، لماذا؟ ([[13]](#endnote-13))**

بعضُ الاتّهاماتِ المألوفةِ:

**وُجدَت تأثيراتٌ، فكرية، معينة، قادمة من أوروبة، كانت ضمن العناصر المكوّنة للحالة، المضادة للعادات والأعراف الغربية، وخصوصاً الأمريكية. أحد هذه العناصر كان من ألمانية، حيث كوّنت وجهةُ نظرٍ سلبيةٌ لأمريكة جزءاً من مذهبٍ فكري، لم يكن مقصوراً على النازيين، بل تضمن كُتّاباً متنوعين، تنوّع رينير ماريا ريلكي([[14]](#endnote-14)) (Rainer Maria Rilke)،وإرنست جانكر([[15]](#endnote-15)) (Ernst Junger)، ومارتن هايداكر([[16]](#endnote-16)) (Martin Heidegger).**

**كانت أمريكة في هذا الفهم النموذجَ النهائيَّ لحضارةٍ دون ثقافة؛ غنيةٍ ومريحة؛ متقدمةٍ مادّياً، لكنها بلا روح، وزائفةٌ؛ مجمّعة، أو ـ في أحسن الأحوال ـ مبنية، وليست ناميةً؛ آليةٌ وليست عضوية؛ معقّدةٌ تقنياً لكن تعوزها الروحيةُ، وحيويةُ الثقافات القومية، والإنسانية المتأصلة للألمانيين، وأناس آخرين حقيقيين. الفلسفة الألمانية، وخصوصاً فلسفة التربية حظيت برواج كبير بين العرب، وبعض المفكرين المسلمين الآخرين في الثلاثينيات وبداية الأربعينيات. وهذه النظرة الفلسفية المضادة للعادات والأعراف الأمريكية كانت جزءاً من هذه الرسالة.**

**بعد انهيار النظام النازي، المعروف بـالإمبراطورية الثالثة([[17]](#endnote-17)) (Third Reich) والنهاية المؤقتة للتأثير الألماني، فلسفة أخرى ـ أكثر عداءً لأمريكة ـ أخذت موقعها: وهي الرؤية السوفيتية للماركسية، مع شجب للرأسمالية الغربية، ولأمريكة، حيث إنها التجسيدُ الأكثرُ خطورةً وتقدماً للرأسمالية. وعندما بدأ التأثير السوفياتي يضمحل، كان ما يزال هناك آخرُ يأخذ مكانه، أو على الأقل يتمم عمله، وهو هالة الغموض، والسر المحيط بما يسمى "مذهب العالم الثالث"(Third Worldism)، المنبثقةُ من أوروبة الغربية، وخصوصاً فرنسة، والمنبثقة أيضاً ـ فيما بعد ـ من الولايات المتحدة، والمعتمدة أحياناً على هذه الفلسفات السابقة. هالةُ الغموضِ هذه ساعدتها النزعةُ الإنسانية العالمية لاختراع عصر ذهبي في الماضي، وتحديداً النزعةُ الأوروبية لوضعها في مكان آخر.**

**ونوع آخر جديد من أسطورة العصر الذهبي القديم أقامها في العالم الثالث، حيث براءة آدم وحواء، غير الغربيَّينِ كانت فسدت بسبب الحية الغربية. يرى هذا الرأي من البداهة طيبَ وصفاء الشرق، وخُبثَ الغرب، الذي يتوسع في منحنٍ أُسّيٍّ من الشر، من أوروبة الغربية إلى الأمم المتحدة. هذه الأفكار وقعت على أرض خصبة، وحازت دعماً واسع الانتشار.**

**لكن مع أن هذه الفلسفات المستوردة ساعدت في تزويد التعبير الفكري ضد العادات، والتقاليد الغربية، والأمريكية، إلا أنها لم تسببّها، وبالتأكيد هي لا تفسر العداوة الواسعة الانتشار للعادات، والتقاليد الغربية، التي جعلت كثيرين في الشرق الأوسط، وفي أماكن أخرى في العالم الإسلامي على استعداد لقَبول مثل هذه الأفكار. لا بد أن يكون واضحاً بأن الذي كسب دعمَ مثل هذه السياسات المتنوعة كلّيا لم تكن نظريةُ العرق النازي، التي كان من الممكن أن تحظى بجاذبية قليلة عند العرب، ولا الشيوعية الإلحادية السوفيتية، التي كان من الممكن أن تلقى استهواء عند المسلمين.**

**إنما الذي كسب الدعم هو عداؤهم المشترك للعادات، والتقاليد الغربية. كانت النازية والشيوعية قوتين، رئيسيتين، معارضتين للغرب، من حيث هو طريقة حياة، وقوة في العالم، وبمثل هذا، اعتمدوا ـ على الأقل ـ على عطف، إن لم يكن على دعم أولئك الذين رأوا في الغرب عدوَّهم الأول.**

**لماذا العداوة في المقام الأول؟ إذا انتقلنا من العامّ إلى الخاص، ليس ثمة نقصٌ في الأفعال، والسياسات الفردية، التي تطاردها وتستولي عليها الحكومات الغربية الفردية، والتي أثارت غضباً شديداً لسكان الشرق الأوسط، والمسلمين الآخرين. لكنه، وفي حالات كثيرة، عندما تُهجر هذه السياسات، وتحل المشاكل، فهناك تفريج مؤقت ومحلي فقط.**

**غادرت فرنسةُ الجزائر، وبريطانيا مصر، وشركات النفط الغربية آبارَهم النفطية، وكذا الشاهُ المستغرب غادر إيران، ومع ذلك فإن الحفيظة المعممة للأصوليين، ومتطرفين آخرين ضد الغرب وأصدقائه بقيت ونمت، ولم تهدأ. إن السبب الأكثر وروداً وذكراًً، والمؤدي إلى الشعور المعادي لأمريكة بين المسلمين هو الدعم الأمريكي لإسرائيل.**

**هذا الدعم دون ريب هو عنصر ذو أهمية، ويتنامى مع القرب والانغماس. لكن أكرر هنا أنه يوجد بعض الأشياء الغريبة، من الصعب أن تفسَّر على أساس سبب بسيط، مفرد. في الأيام الأولى لتأسيس إسرائيل، حافظت الولاياتُ المتحدة على بُعدٍ محدد، في حين أن الاتحاد السوفياتي منح على الفور دعماً، واعترافاً شرعيين. وأرسلت أسلحةٌ من تشيكوسلوفاكيا، الدولة التابعة للاتحاد السوفياتي لإنقاذ دولة إسرائيل في مهدها من الهزيمة، والموت في الأسابيع الأولى من بدايتها. وبالرغم من هذا، فيبدو أنه لم يكن هناك مشاعر سيئة كبيرة باتجاه السوفيتيين من جرّاء هذه السياسات، ولا مشاعر طيبة مقابلة باتجاه الولايات المتحدة.**

**وكانت الولايات المتحدة هي التي تدخلت في عام 1956م بقوة، وعلى نحو حاسم لتأمين انسحاب القوات الإسرائيلية والبريطانية والفرنسية من مصر، ومع هذا فإنه في نهايات الخمسينيات، والستينيات كان السوفياتيون، وليس أمريكة، هم الذين لجأ إليهم حكّامُ مصر، وسورية، والعراق، ودول أخرى من أجل السلاح، وكانت كتلة السوفيات هي التي أقاموا معها روابطَ التضامن في الأمم المتحدة، وفي العالم عموماً. وحديثاً، ندّد حكامُ جمهورية إيران الإسلامية بإسرائيل والصهيونية، تنديداً لا يلين، ومتكئاً على مبادىء صارمة. ومع هذا فحتى هؤلاء القادة ـ قبل وبعد موت آية الله، روح الله الخميني ـ عندما قرروا ـ لأسباب خاصة بهم ـ أن يدخلوا في حوار، دون المستوى المنشود، وجدوا أن المحادثة مع القدس أسهلُ من المحادثةمع واشنطن. وفي الوقت نفسه، فإن الرهائن الغربيين في لبنان ـ كثير منهم متفانٍ في القضايا العربية، وبعضهم مسلمون ـ نُظر إليهم وعُوملوا من قِبل الذين أسروهم على أنهم من صلب الشيطان الأكبر.**

**يعزو تفسيرٌ آخر، يُسمع غالباً من المسلمين المنشقين، الشعورَ المعادي لأمريكة إلى الدعم الأمريكي للنظم المكروهة، التي يراها الراديكاليون نظماً رجعية، والمحافظون نظماً فاسقة، وكلا الطرفين يراها فاسدة واستبدادية. هذا الاتهام فيه شيء من المعقولية، وقد يساعد في تفسير السبب في أنه ينبغي على الحركة المتجهة إلى الداخل أساساً، وهي غالباً ضد القومية، أن تنقلب ضد قوة أجنبية. لكن هذا الاتهام لا يكفي، خصوصاً لأنّ دَعْم مثل هذه النظم كان محدوداً في المدى، وفي الفعالية، كما تبين للشاه. من الجلي أن ثمة شيئاً ذا صلة، أعمقَ من هذه الشكاوى المحددة، الكثيرة والمهمة كما يمكن أن تكون، شيئاً أعمق، من شأنه أن يُحيل كل خلاف إلى مشكلة، ويجعل كل مشكلة لا يمكن حلها.**

**هذا الاشمئزاز من أمريكة، المنصبُّ عليها أكثر من الغرب على العموم، ليس أبداً مقصوراً على العالم الإسلامي ولا المسلمين، باستثناء الشيوخ الإيرانيين وتلاميذهم في أماكن أخرى، الذين خبروا وأظهروا الأشكال الأكثرَ سلبيةً من هذا الشعور. إن حالة خيبة الأمل والكراهية قد أثرت في أجزاء متعددة في العالم، حتى إنها وصلت إلى بعض العناصر في الولايات المتحدة. وإنه من هذه العناصر ـ التي تتكلم عن نفسها، وتدعي الكلام بالنيابة عن الناس المضطَهدين في العالم الثالث ـ انطلقت التفسيراتُ والتسويغات الأكثرُ رواجاً وذيوعاً لرفض الحضارة الغربية وقيمها. والاتهامات معروفة، فنحن في الغرب متَّهمون بالتعصب للذكورة، والعنصرية، والاستعمار، وكذلك جَعْلُ التحكمِ للرجال، والعبوديةِ، والاستبداد، والاستغلال جزءاً من المجتمع والثقافة.**

**ليس لدينا خيارٌ إلا أن نقرّ أمام هذه التهم، وغيرها من تهم شنيعة، بأننا مذنبون، ليس على أننا أمريكيون، ولا حتى أوروبيون، إنما ببساطة من منطلق بشريتنا، وأننا أعضاء في العنصر البشري.**

**ونحن لسنا المذنبين الوحيدين في أيٍّ من هذه الخطايا، بل نحن في بعضها بعيدون عن أن نكون الأسوأ. فمعاملة النساء في العالم الغربي، وعموماً في العالم المسيحي كانت دائماً ليست عادلة، وأحياناً ظالمة، لكنها وفي أسوأ حالاتها كانت ـ نوعاً ما ـ أفضل من قانون تعدد الزوجات، والتسري الذين لولا ذلك لكانا تقريباً نصيباً عالمياً لجنس النساء على هذا الكوكب.([[18]](#endnote-18))**

**هل العنصرية إذن هي الشكوى الرئيسة؟ بالتأكيد برزت الكلمة بوضوح في الدعاية، مخاطبة للجمهور الأوروبي الغربي والشرقي، وبعضِهم في العالم الثالث. وبرزت على نحو أقلّ وضوحاً فيما هو مكتوب، ومنشور للاستهلاك الداخلي، وأصبحت مصطلحاً سيء الاستعمال، معمّماً، لا معنى له، شبيهاً إلى حد ما بالفاشية، الذي يعزى في هذه الأيام إلى الخصوم، حتى من قبل الناطقين باسم الحزب الواحد، وباسم الدكتاتوريات القومية، ذات الصفات والألوان المتنوعة.**

**الرقّ اليومَ مرفوض عالمياً، فهو إساءة ضد الإنسانية، لكن في ذاكرة الناس كان الرق قد مورِس وتم الدفاع عنه، على أنه نظام ضروري، أسسه ونظمه القانون الإلهيّ. إنّ غرابة النظام المستغرب، كما سماه الأمريكيون ذات مرة، لم تكمن في وجوده، بل في إلغائه. كان الغربيون أوّلَ من ألغوا إجماع القبول، وحظروا الرق، بدايةً في الداخل، ثم في الأقاليم الأخرى التي سيطروا عليها، ونهايةً في كل مكان في العالم كانوا فيه قادرين على ممارسة القوة أو السلطة، وباختصار، بواسطة الاستعمار.([[19]](#endnote-19))**

**هل الاستعمار إذن هو الشكوى؟ إنّ بعضَ القوى الغربية، وبوجه آخر الحضارة الغربية جملةً، كان ذنبُها الاستعمارَ. لكن هل علينا حقّاً أن نصدّق أنه كان هناك في توسّعِ أوروبة الغربية نوعٌ من الجُنحة الأخلاقية، غير الموجودة في التوسعات، السابقة، البريئة نسبياً، مثل توسعات العرب، أو المغول، أو العثمانيين، أو التوسعات الأحدث، مثل تلك التي جلبت حكّام روسيا إلى بحر البلطيق، والبحر الأسود، وبحر قزوين، وهندوكوش([[20]](#endnote-20)) (Hindu Kush)، والمحيط الهادىء؟([[21]](#endnote-21))**

**كان الغرب في ممارسته التعصبَ للذكورة، والعنصرية، والاستعمار، يتّبع سنّةً عامّة عند البشر على مرّ آلاف الأعوام في التاريخ المسجّل. إن الذي يميز الغربَ من كل الحضارات الأخرى هو في اعترافه، وتسميته، ومحاولته ـ ليس تماماً من دون نجاح ـ علاجَ هذه الأمراض التاريخية.**

**وهذا بالطبع أمرٌ يُشكَر له، ولا ينكَر عليه. نحن لا نعدّ العلم الطبيَّ الغربي عموماً، أو الدكتور باركنسون([[22]](#endnote-22)) (Parkinson)، والدكتور ألزهايمر([[23]](#endnote-23)) (Alzheimer) خصوصاً مسؤولين عن الأمراض التي شخّصوها، والأمراض التي منحوها أسماءهم.**

**واحدٌ من بين هذه الاستياءات، الأكثرٌ تكراراً، والأشدُّ شجباً هو من دون شكٍ "الاستعمار"، أحياناً "الاستعمار الغربي" فقط، وأحياناً "الشرقي" (الاتحاد السوفياتي)، والغربي معاً. لكن الطريقة التي تُستَعمل فيها هذه الكلمةُ في كتابات الأصوليين المسلمين توحي غالباً بأنها لا تحمل تماماً المعنى ذاته عندهم، كما تحمله عند النقاد الغربيين. فكلمة الاستعمار في كثير من هذه الكتابات تعطى أهميةً دينيةً على نحو واضح، وتستعمل بالمشاركة مع كلمة "المبشّر"، وأحياناً تُستَعمل كلُّ واحدة منهما عوضاً عن الأخرى. وتعني الكلمة شكلاً من الهجوم الذي يضم الحروبَ الصليبية، والإمبراطوريات الاستعمارية المعاصرة.**

**ومما يقع في النفس أيضاً أنّ إساءة الاستعمار ليست ـ كما يرى النقاد الغربيون ـ سيطرةَ أناس على آخرين، وإنما توزيع الأدوار في هذه العلاقة. والذي هو شرٌّ بحقٍّ، وغير مقبول هو سيطرة الكفار على المؤمنين الحقيقيين. فإنّه أنْ يحكم المؤمنون الحقيقيون الكفارَ فهو الصحيح والطبيعي، لأن هذا يعين على المحافظة على الشريعة، ويعطي الكفارَ الفرصة، والحافز لاعتناق العقيدة الصحيحة. أما أن يحكم الكفارُ المؤمنين الحقيقيين فإنه كفرٌ، وغير طبيعي، لأنه يقود إلى فساد الدين والأخلاق في المجتمع، وإلى تحدّي شرْع الله، وحتى نَسْخه. ([[24]](#endnote-24))**

**وهذا ربما يساعد في فهم المشاكل الجارية في أماكن متنوعة، مثل إرتيريا الإثيوبية، وكشمير الهندية، وسينجيانغ الصينية([[25]](#endnote-25)) (Sinkiang)، وكوسوفو اليوغوسلافية، التي يحكُم في جميعها السكانَ المسلمين حكوماتٌ غيرُ مسلمة.([[26]](#endnote-26))**

**وهو أيضاً ربما يفسر لماذا يطالب الناطقون ـ من أجل الإسلام ـ باسم الأقليات، المسلمة، الجديدة في أوروبة الغربية، بدرجة من الحماية القانونية، التي لم تعد تعطيها هذه البلادُ للنصرانية، ولم تعطها أبداً لليهودية. ولا تمنح طبعاً حكوماتُ بلاد هؤلاء الناطقين باسم المسلمين مثلَ هذه الحماية للأديان، سوى دينهم.**

**في فهمهم، ليس ثمة تناقض في هذه الآراء. فالعقيدة الصحيحة، المستمدة من وحي الله الأخير، لا بد من حمايتها من الإهانة وسوء المعاملة، أما العقائد الأخرى، فلكونها إما باطلة أو ناقصة، فليس لها حقٌّ في أيّ حماية.([[27]](#endnote-27))**

**هناك صعوبات أخرى في طريق قبول الاستعمار من حيث هو تفسير لعداء المسلمين، حتى إذا عرّفنا الاستعمار تعريفاً ضيقاً ومحدداً: وهو غزو وسيطرة غير المسلمين على البلدان الإسلامية. إذا كان العداء موجهاً ضد الاستعمار بهذا المعنى، فلمَ كان ضدَّ أوروبة الغربية ـ التي تخلت عن أملاك المسلمين، وعن البلدان التي سيطرت عليها ـ أقوى بكثير منه ضد روسيا، التي لا تزال تحكم ملايين عديدة من الرعايا المسلمين الممانعين، وتسيطر على مدن وبلاد إسلامية قديمة؟**

**لماذا يجب أن يشمل العداءُ الولايات المتحدة، التي لم تحكم أبداً أيّ سكّان مسلمين، باستثناء فترة وجيزة في منطقة أقليات مسلمة في الفلبين؟ آخر إمبراطورية أوروبية باقية، فيها رعايا مسلمون(الاتحاد السوفياتي)، البعيد من كونه هدفاً للنقد والهجوم، كان تقريباً معفىً [من العداء].**

**حتى إن عمليات القمع الحديثة للثورات الإسلامية في جنوب، ووسط الجمهوريات الآسيوية للاتحاد السوفياتي للجمهوريات الاشتراكية (USSR) لم تستهدفها إلا كلماتٌ معتدلة من الاعتراض، مشفوعةٌ بتنازل عن أيّ رغبة في التدخل فيما يدعى ـ على نحو غريب ـ الشؤونَ الداخلية للاتحاد السوفياتي للجمهوريات الاشتراكية، وبطلب حفظ النظام، والهدوء على الحدود. سبب واحد لهذا الكبح المفاجئ للنفس،إلى حد ما، يوجد في طبيعة الأحداث في أذربيجان السوفياتية. من الواضح أن الإسلام عنصر مهم، وقابل للازدياد في شعور الأذربيجاني بالهوية. لكن الإسلام في الوقت الحاضر ليس عنصراً مهيمناً، واشتراك الحركة الأذربيجانية مع الغيرة الوطنية التحررية لأوروبة،أكثر من اشتراكها مع الأصولية الإسلامية. مثل هذه الحركة لا تهيّج عطف حكّام الجمهوريات الإسلامية. إنها قد تنبّههم إلى الخطر، لأن الدولة، القومية، الديمقراطية، الحقيقية التي يديرها سكانُ أذربيجان السوفياتية يمكن أن يكون لها نوعُ جاذبيةٍ، قوية على أبناء جِلْدتهم إلى الجنوب مباشرة في أذربيجان الإيرانية.**

**وسبب آخر لقلة الاكتراث النسبي لخمسين مليون مسلم أو أكثر تحت الحكم السوفياتي قد يكون حسابَ المخاطرة والمصلحة. الاتحاد السوفياتي ـ مع الحدود الشمالية لتركية ـ يقع قرب إيران وأفغانستان. أمريكة وحتى أوروبة الغربية بعيدان جداً. والأهمّ من ذلك، أنه كان من ممارسة الاتحاد السوفياتي أن يقمع الاضطراباتِ بواسطة آلة تضخّ الماء بقوة، والرّصاصات المطّاطية، بحضور الكاميرات التلفزيونية. وأن يطلق سراحَ الأشخاصِ المعتقلين بكفالة، ويسمح لهم بالوصول إلى الإعلام الداخليّ و الخارجي. والسوفياتيون لا يرضون بإجراء مقابلات مع الأشخاص الذين ينتقدونهم بشدّة، أثناء وقت الذروة، حيث يكون أكبرُ عدد من المشاهدين، أو المستمعين. أو يغرون منتقديهم بالانشغال في التدريس وإلقاء المحاضرات، والكتابات. وعلى العكس، فإن أساليب السوفياتيين التي تعبّر عن استيائهم من النقد يمكن أن تكون غير مقبولة تماماً. لكن الخوف من الانتقام ـ مع أهميته بلا ريب ـ ليس السببَ الوحيد، وربما ليس الرئيسي للمكان، الثانوي نسبياً، المخصَّص للاتحاد السوفياتي، بالمقارنة مع الغرب، في دراسة شياطين الأصولية.**

 **في نهاية الأمر، إنّ التغييراتِ الاجتماعيةَ، والفكرية، والاقتصادية الكبيرة التي حوّلت جلَّ العالم الإسلامي، وولّدت شروراً غربية، مرفوضة عموماً، مثل حمّى الاستهلاك، والعلمانية، قد انبثقت من الغرب، وليس من الاتحاد السوفياتي. إنّ أحداً لم يتّهم السوفياتيون بحمّى الاستهلاك، وأنّ ماديتهم فيلسوفية ـ أو للدقةِ جدليةٌ ـ وأنها من الناحية التطبيقية لا تقدم شيئاً للأمور الجيدة في الحياة، أو تقدم القليل. هذا التقديم يمثل نوعاً آخر من المادية، يسميه أعداؤه بالغباء، والخلو من العاطفة. وهو مرتبط بالغرب الرأسمالي، وليس بالشرق الشيوعي، الذي مارس، أو على الأقل فرض على رعاياه درجةً من التقشف التي يمكن أن تروق للصوفيين الصالحين.**

 **ولم يتعرض السوفياتيون حتى وقتٍ قريب إلى الاتهام بالعلمانية، الاتهامِ الآخر الأصولي الكبير ضدّ الغرب. وبالرغم من أنّ السوفياتيين ملاحدة، إلا أنه لا يعني أنه ليس لهم آلهة، هم في الحقيقة أقاموا جهازَ دولةٍ، معقداً، ومنظَّماً، لفرض عبادة آلهتهم، جهازاً مصحوباً باعتقادهم، وبنظام ذي مستويات لتعريفه وفرضه، وتفتيشٍ، مسلّح لكشف واجتثاث البدعة. إن الفصل بين الدين والدولة لا يعني إقامة الكفر عن طريق الدولة، وعن طريق ـ وما يزال أقل ـ الفرضِ الإجباري للفلسفة المعادية للدين.**

**العلمانية السوفياتية، كحمّى الاستهلاك السوفياتي، ليس فيهما استهواءٌ لعامة المسلمين، وهي تفقد الجاذبية عند المفكرين المسلمين. وأكثر من أيّ وقت مضى، كانت الرأسمالية، والديمقراطية الغربية هما اللتان هيّأتا بديلاً، فيه جاذبيةٌ، وأصالة، عن الأساليب التقليدية للفكر والحياة. إن القادة الأصوليين ليسوا مخطئين في رؤيتهم للحضارة الغربية على أنها التحدي الأكبر لأسلوب الحياة التي تمنوا أن يبقوها، أو يجددوها لقومهم.**

صِراعُ الحضاراتِ

**إن أصول العلمانية في الغرب توجد في أمرين: ـ التعاليم والتجارب المسيحية السابقة، التي أنشأت مؤسستين: الكنيسة والدولة. ـ وفي الصراعات المسيحية المتأخرة، التي فصلت بينهما. والمسلمون أيضاً عندهم خلافاتهم الدينية، لكن ليس هناك شيء يدنو، ولو من بعيدٍ، من شراسة الصراعاتِ، المسيحية بين البروتستانت والكاثوليك، التي دمّرت أوروبة، المسيحية في القرنين السادس عشر، والسابع عشر، والتي في النهاية ألجأت المسيحيين إلى تطوير عقيدة الفصل بين الدين والدولة.**

**وبدا أنه فقط عن طريق حرمان المؤسسات الدينية من القوة القسرية، استطاع العالم المسيحي أن يكبح جماحَ التعصبِ، والاضطهادِ الفتّاكين، الذين عاقب بهما المسيحيون أتباعَ الأديان الأخرى، وبدرجة أعظم، أولئك الذين جاهروا بصيغ أخرى لدينهم.**

**لم يعانِ المسلمون مثل هذه الحاجة، ولم يطوّروا مثلَ هذه العقيدة. لم يكن ثمَّ حاجةٌ إلى العلمانية في الإسلام، وحتى نظرته التعددية كانت مختلفة عن الإمبراطورية، الرومانية، الوثنية، كما وصفها بوضوح إدوارد جبن([[28]](#endnote-28)) (Edward Gibbon) حين لاحظ أن الحالات المتعددةَ للعبادة، التي انتشرت في العالم الرّوماني، كان يعتبرها الناسُ صحيحةً على نحو متساو، ويعتبرها الفيلسوفُ مزيفةً على نحو متساوٍ، ويعتبرها القضاةُ مفيدةً على نحو متساوٍ. الإسلام لم يكن مهيّأً، إما في النظرية، أو في التطبيق، إلى أن يمنح مساواةً تامّةً لأصحاب العقائد الأخرى، والذين مارسوا أنواعاً أخرى من العبادة. أما الذين حازوا على حقٍّ جزئيٍّ، فإنّ الإسلامَ منحهم درجةً من التسامح التطبيقيّ والنظري، قلّما يُضارَع بالعالم المسيحيّ حتى تبنّى الغرب مقياسَ العلمانية في نهاية القرن السابع عشر، والقرن الثامن عشر.**

**في البداية كانت استجابةُ المسلمين للحضارة الغربية نوعاً من الإعجاب والتقليد، والاحترام الكبير لإنجازات الغرب، والرغبة في تقليدها وتبنيها. ونشأت هذه الرغبةُ من الوعيّ الشديد، والمتزايد للضعف، والفقر، والتخلف في العالم الإسلامي، بالمقارنة بالغرب المتقدم. أصبح الفرق في البداية ظاهراً على أرض المعركة، لكن سَرعان ما انتشر إلى مِساحاتٍ، أخرى من النشاط الإنساني.**

**راقب الكُتّاب المسلمون، ووصفوا الثروة، والقوّة في الغرب، وعلمه وتقنيّته، وصناعاته، وأشكال حكوماته. و لبعض الوقت، نُظر إلى السر في النجاح الغربي كامناً في إنجازين: التقدّم الاقتصادي، وبخاصة الصناعة، والنظم السياسية، وبخاصة الحرية. عدة أجيال من المصلحين والمجددين حاولوا أن يكيّفوا هذه النظمَ، ويدخلوها إلى بلادهم، آملين بواسطتها أن يحققوا المساواة مع الغرب، وربما يستعيدوا سيادتَهم المفقودة.**

**في وقتنا الخاص، فَسحت هذه الحالةُ من الإعجاب والتقليد مجالاً لحالةٍ من العداوة والرفض بين كثير من المسلمين. هذه الحالة ـ من ناحية ـ هي بالتأكيد بسبب الشعور بالهوان: الوعي المتزايد بين وُرَّاث الحضارة القديمة، المغرورة، المسيطرة لوقت طويل، والتي تم تجاوزُها، وإزالتها، وقهرها عن طريق أولئك الذين عدّهم المسلمون أدنى درجةً. وهذه الحالة ـ من ناحية أخرى ـ هي بسبب الأحداث في العالم الغربي نفسه. كان عاملٌ، ذو أهمية رئيسية هو تأثيرَ حربين، مدمّرتين، عظيمتين، مزّقت فيهما الحضارةُ الغربية نفسَها إلى أجزاء، مسبِّبةً دماراً، لا حصرَ له، لها ولغيرها من الناس، والتي قام فيها المحاربون بدعاية ضخمة في العالم الإسلامي وأماكن أخرى، بغيةَ إضعاف وتشويه سمعة بعضهم بعضاً.**

**وقد لاقتِ الرسالةُ التي قدّموها أناساً كثيرين، يصغون إليها، كانوا أكثر استعداداً لأن يستجيبوا بأنّ تجربتهم مع الأساليب الغربية لم تكن سارّةً. فإدخالُ الطرق التجارية، والمالية، والصناعية الغربية لم تجلب لهم الثروةَ، إنما زادت عند الغربيين المنتقلين، وأعضاءِ الأقليات المتغرّبة، و بين القلة فقط من السكان المسلمين. وفي النهاية، صار هؤلاء القلةُ كثيرين، لكنهم بقوْا منعزلين عن العامة، مختلفين عنهم في اللباس وطريقة المعيشة. لا بد أنه نُظِر إليهم على أنهم وكلاءُ، ومتعاونون مع ما اعتُبر ـ للمرة الثانية ـ عالَماً عدائياً. وحتى النظم السياسية التي جاءت من الغرب زال الإعجاب والثقة بها. ولم تُحاكَم إلى أصولها الغربية، إنما إلى تقليداتها المحلية، التي تقلّدها المصلحون المسلمون المتحمّسون. هؤلاء ـ الذين يعملون في حالةٍ خارجَ سيطرتهم، والذين يستعملون طرائق مستوردة، وغيرَ ملائمة، ولم يفهموها تماماً ـ كانوا عاجزين عن التعامل بنجاحٍ مع الأزمات المتطورة على نحوٍ متسارع، وكانوا يهزَمون واحداً واحداً. ترى أعداد كبيرة من سكان الشرق الأوسط، أن الطرائقَ الاقتصادية، ذاتَ النموذجِ الغربي سببت الفقر، وأنَّ النظمَ السياسيةَ، ذاتَ النموذج الغربي جلبت الطغيان، وحتى الحرب، ذاتُ النموذج الغربي أدت إلى الهزيمة.**

**وإنه ليس من المفاجئ أن الكثيرين كانوا مستعدين للإصغاء إلى أصوات، تخبرهم بأنّ الطُرُق الإسلامية، القديمة هي الأفضل، وأنّ خلاصَهم الوحيد أن يَرموا بالبدع الوثنيةِ للمصلحين جانباً، وأن يؤوبوا إلى الطريق القويم، الذي فرضه الله على عباده.**

**وصراع الأصوليين- في النهاية- هو ضد عدوّين: العلمانية، والتحديثية (Modernism). الحرب ضد العلمانية مُدرَكةٌ وواضحة. وتوجد الآن كتاباتٌ، كاملة، تندد بالعلمانية، على أنها قوة، شريرة، وثنيّة، جديدة في العالم العصري، وتنسبها ـ على نحو مختلف ـ إلى اليهود، والغرب، والولايات المتحدة.**

**أما الحرب ضد التحديثية فهي على الأغلب ليست مدرَكةً، ولا واضحةً، وموجهة ضد العملية الكاملة للتغيير، الذي حدث في العالم الإسلامي في القرن الماضي، أو أكثر، والذي غيّر البنى السياسية، والاقتصادية، والاجتماعية، وحتى الثقافية للبلدان الإسلامية. إنَّ الأصولية الإسلامية قد منحت هدفاً، وشكلاً للاستياء المختلف، الذي لا هدف له، ولا شكل، ولغضب المسلمين العامة على القوى التي حطّت من قيمهم التقليدية، وولاءاتهم، و- في التحليل النهائي- سلبوهم اعتقاداتِهم، وطموحاتهم، وكرامَتهم، و- إلى حدٍّ متزايدٍ- وسائلَ معيشتهم.**

**هناك شيء في الثقافة الدينية للإسلام، يبعث- حتى عند الفلاح والبائع الجوّال، الأقلَّيْنِ شأناً- على الاحترام والسلوك الراقي تجاه الآخرين، الذين لم يُسبقا و قلما يضارَعان في الحضارات الأخرى. لكن أيضاً في لحظات الاضطراب والاختلال ـ عندما تُهيَّج الانفعالات ـ فإن الاحترام، والسلوك الراقي تجاه الآخرين يفسحان مجالاً لخليطٍ، متفجرٍ من الغضب والكراهية، الذين يدفعان حكومة َالبلد القديمة والمتحضرة، والناطقين باسم الدين الروحي، والأخلاقي العظيم، إلى دعم الخطف، والاغتيال، والبحث في حياة نبيهم عن استحسان، وسوابق لمثل هذه الأفعال.([[29]](#endnote-29))**

**إنّ شعورَ العامة ليس مزيفاً في وضْع المنبع النهائي للتغييرات الجائحة في الغرب، وفي عزْو الاضطراب في الأسلوب القديمِ لمعيشتهم إلى تأثير السيطرة الغربية، والتأثير الغربي، والمبدأ والمثال الغربي. وبما أن الولايات المتحدة هي الوارثُ الشرعي للحضارة الأوروبية، وقائدُ الغرب المعترفُ به، والذي لا يمكن تحدّيه، فإنها قد ورثت الشكاوى الناتجةَ، وأصبحت مركزَ الكراهية، والغضب المكظومين.**

**وربما يكفي ضربُ مثالين: في إسلام أباد(الباكستان)، في تشرين الثاني عام 1979م، هاجمت بعض الغوغاء الغاضبين سفارةَ الولايات المتحدة، وأحرقوها. وكان السببُ المعلَن لغضب الحشد استيلاءَ جماعة من المسلمين، المنشقين على المسجد الحرام في مكة، وهو حدثٌ لا صلة لأمريكة به أيّاً كان الشأن([[30]](#endnote-30)). بعد عشرة أعوام تقريباً، في شباط عام 1989م، و في إسلام أباد أيضاً، هاجمت حشودٌ غاضبةٌ مركزَ خدمة المعلومات للولايات المتحدة(USIS)، وهذه المرة احتجاجاً على نشر "آيات شيطانية" لسلمان رشدي. ورشدي مواطن بريطاني، هندي المولد، وكان طُبع كتابه قبل خمسة أشهر في بريطانيا. لكنَّ الأمرَ الذي استفزّ غضبَ الغوغاء، وأدّى إلى إعلان الخميني اللاحقِ بالحكم بالقتل على المؤلف، هو طبع الكتاب في الولايات المتحدة.**

**لا بد أن يكون قد صار واضحاً بأننا نواجه حالةً، وحركة، تتجاوز بعيداً مستوى القضايا، والسياسات، والحكومات التي تتبعها. هذا ليس أقلَّ من صراع الحضارات، وردةُ فعل، غيرُ عقلانية، لكنها بالتأكيد تاريخيةٌ، لمنافسٍ قديمٍ ضدَّ تراثِنا اليهودي والنصراني، وحاضرنا الدنيوي، والتوسعِ الواسع الانتشار لكليهما. من المهمّ جداً أنه من ناحيتنا لا ينبغي أن نُستَفزّ إلى ردة فعلٍ تاريخية، ولا عقلانية على نحو مساوٍ، ضد هذا المنافس([[31]](#endnote-31)). ما كلُّ الأفكارِ، المستوردةِ من الغرب عن طريق الدخلاء الغربيين، أو المتغرِّبين الأصليين مرفوضةً. حتى إنه قد قبِلَ بعضَ هذه الأفكار الأصوليون الإسلاميون، الأكثر تطرفاً، ـ على الغالب ـ من دون معرفة المنبع، ومعاناةٍ من تغيير مفاجئ إلى شيء، من النادر غناه، لكنه غالباً غريب. مثلُ هذه الأفكار كانت الحريةَ السياسية، مع الأفكار المرتبطة بها، وممارسات التمثيل، والانتخاب، والحكومة الدستورية. حتى جمهورية إيران الإسلامية لديها دستورٌ مكتوب، وجمعيةٌ منتخبة، بالإضافة إلى نوعِ حكومةٍ كنسية، ليس لأيٍّ منها حكمٌ في التعاليم الإسلامية، أو سابقةٌ في الماضي الإسلامي. كل هذه المؤسسات كيّفتها النماذجُ الغربية.**

**حافظت الدولُ الإسلامية أيضاً على العديد من العادات الثقافية، والاجتماعية للغرب، والرموز التي تفصح عنها، مثل شكل ونموذج الثياب الذكورية (وإلى حد أقل بكثير الأنثوية)،خصوصاً في العسكرية. استعمال البندقيات، والدبابات، والطائرات، التي اخترعها الغربُ هي ضرورة عسكرية، لكنّ الاستعمال الدائم للسترات القصيرة، والقبعات المحدّدة هو اختيار ثقافي. من الدساتير إلى كوكا كولا، من الدبابات إلى التلفاز، إلى القمصان القصيرة، فإن رموز الغرب ومنتجاته الصناعية ـ والأفكار التي في طيّاتها ـ قد حافظت، بل عززت بريقها وجاذبيتها.**

**إن الحركة التي تسمّى في هذه الأيام "الأصولية" ليست النَمَطَ الإسلامي الوحيد. فهناك أنماطٌ أخرى، أكثرُ تسامحاً وانفتاحاً، قد بثّت الإلهامَ للإنجازات، العظيمة للحضارة الإسلامية في الماضي، ونحن نأمل لهذه الأنماط الأخرى أن تسود في نهاية المطاف. لكن قبل أن يُحسَم هذا الأمرُ، سيكون هناك صراعٌ قاس، لن نستطيع نحن الغربيين أن تفعل فيه شيئاً، أو ربما نفعل اليسير. بل إن مجرد المحاولة قد تعود بالضرر، لأن هذه أمور، على المسلمين أن يحسموها فيما بينهم.**

**وفي غضون ذلك، من المحتم علينا أن نحتاط بشدة من جميع الأطراف، لتجنب خطرِ عهدٍ جديد من الحروب الدينية، النابعة من استفحال الخلافات، وإحياء التعصبات القديمة. ومن أجل تحقيق غايتنا، فمن الواجب علينا أن نجاهد للوصول إلى تقديرٍ أفضل للثقافات، الدينية، والسياسية الأخرى، من خلال دراسة تاريخهم، وأدبهم، وإنجازاتهم. ونحن في الوقت نفسه نأمل أنهم سيحاولون أن يفهموا ثقافتنا على نحو أفضل، وخصوصاً أن يحاولوا فهم واحترام تصورّنا الغربيّ للعلاقة الصحيحة بين الدين والسياسة، ولو لم يتبنوها لأنفسهم. ولكي أصف هذا التصور، سوف أنهي كما بدأت باستشهاد من رئيس أمريكي، ولكن هذه المرة ليس توماس جيفرسون، (Thomas Jefferson) العادل، المشهور، بل جون تيلر([[32]](#endnote-32))،(John Tyler) المهمَل، والظالم إلى حد ما. الذي ـ في رسالة مؤرخة في 10/تموز/ 1843م ـ قدّم تعبيراً، بليغاً، يستشرف الغيبَ، عن مبدأ الحرية الدينية، يقول: «إنّ الولاياتِ المتحدة جازفت في خوض تجربةٍ عظيمة، ونبيلة، والتي يُعتَقد أنها كانت مخاطرَةً في غياب كل المثيلات السابقة، وهو الفصلُ التامُّ بين الكنيسة والدولة. لا يوجد بيننا مؤسسةٌ، دينية عن طريق القانون. الضمير حرٌّ عن أيّ تقييد، وكلُّ واحد مسموحٌ له أن يعبد صانعَه بعد اتخاذ قراره الخاص. مكاتبُ الحكومة مفتوحةٌ للكلّ، على السواء. لا ضرائب تُدفَع لدعمٍ نظام، مؤسّسٍ، ذي مستويات، ولا حكمَ ـ قابلاً للخطأ ـ لرجل، يُقام على أنه عقيدةٌ، معصومة، ومؤكدة للإيمان. وإذا كان محمدٌ سيعيش بيننا، فسوف يحظى بحقٍّ، يضمنه الدستورُ، وهو أن يتعبد وفقاً للقرآن. وهند الشرقية قد تقيم مزاراً لبراهمة، إذا كان ذلك يرضيها. هكذا تكون روحُ التسامح الراسخة في نظمنا الدستورية. اليهودي المضطهد، والمسحوق في أقاليم أخرى كان قد جعل مكانَ إقامته بيننا، حيث لا شيءَ يروعه، وهو تحت رعاية الحكومة للذود عنه وحمايته. هكذا تكون التجربة العظيمة التي جرّبناها، وهكذا تكون الثمارُ الناجمة عنها. إن نظام الحكومة الحرّة سيكون من دونها ناقصاً. إنّ الجسد قد يُضنَى، ويُصَفَّد، لكنه ينجو. أما عقلُ الرجل إذا قُيِّد فإن طاقاتِه، وقدراتِه سوف تبيد. وما يبقى في الأرض هو أرضيٌّ. إنه لا بدّ للعقل من الحرية، كالضياء، أو الهواء.**

الحواشي

1. () التهديد الإسلامي خرافة أم حقيقة؟،جون إسبوزيتو، ترجمة قاسم عبده قاسم، ص301 ـ 303 بتصرف يسير، واختصار. [↑](#endnote-ref-1)
2. () أسلوب يتخذه المتكلم لدعم رأيه عن طريق العواطف، لا الحجة والبرهان. [↑](#endnote-ref-2)
3. () مقالته "صدام الجهالات" ص107، في كتابه "إسرائيل، العراق، الولايات المتحدة". [↑](#endnote-ref-3)
4. () المقالة مودعة في كتاب لويس From Babel to Dragomans. pp 319-331

وفي مواقع إلكترونية، عديدة منها

<http://www.sullivan-county.com/id3/lewis2.htm> [↑](#endnote-ref-4)
5. () توماس جيفرسون (1743 ـ 1826م) الرئيس الثالث للولايات المتحدة(1801 ـ 1809م). [↑](#endnote-ref-5)
6. () باروح إسبينوزا (1632 ـ 1677م) فيلسوف هولندي، من أصل يهودي. [↑](#endnote-ref-6)
7. () جون لوك(1632 ـ 1704م) فيلسوف إنكليزي. [↑](#endnote-ref-7)
8. () إنجيل مرقس 12:17، ولوقا 20:25. [↑](#endnote-ref-8)
9. () الحرب المقدسة مصطلح غربي، لا يعرفه الإسلام، ولم يطلقه المسلمون على الجهاد، وشتان ما بين مدلول كلمة الجهاد، والحرب المقدسة، فالجهاد أوسع وأشمل من كلمة "الحرب"، فهناك جهاد النفس، والدعوة، والقتال، كما أن هناك فرقاً واسعاً بين أخلاق الحرب، وأهدافها عند المسلمين، وعند غيرنا. [↑](#endnote-ref-9)
10. () كلام يقطُر خبثاً، ومكراً، وافتراء، والله لو لم أكن مسلماً، أو على الأقل إنساناً يعرف الإسلام وأهله لما تصوّرت المسلمَ بعد قراءة هذا الكلام إلا سفّاحاً، لا يقرّ له قرارٌ، ولا يهدأ له بالٌ إلا بعد أن يروّي سيفَه من أعداء الله، لإرسالهم إلى الجحيم الأبدي، حيث مستقرُّهم الأخير، وحيث ينتقم الله منهم، والله طبعاً شديد الانتقام! و لويس ـ بهذا القول المَين ـ يصور الله عز وجل بأنه قد طوى جانب الرحمة فيه، طيّاً غير مردود، وصبّ غضبه على أعدائه صبّاً غير موقوف. وإليك بعضَ الحقائق، التاريخية، المعروفة، التي ترد هذه الافتراءات.

لا يجوز الشروع في الجهاد القتالي، قبل الدعوة إلى الإسلام، ومناقشة الآراء والحجج، وإزالة الشُبه عن المدعويين. فلو أمكنت الهداية بوسيلة غير الجهاد وجب المصير إليها. فقتال الكفار،أو قتلهم ليس بمقصود لذاته. تأمل معي قول النبي لسيدنا علي: «لأنْ يهديَ الله بهداك رجلاً واحداً خيرٌ لك من حمْر النَعَم» [البخاري: 2942]. وقول ابن عباس: «ما قاتل رسول الله قوماً قطّ إلا دعاهم» [مسند أحمد (2105)4/16].

 قال: «لا تتمنوا لقاء العدو، فإذا لقيتموهم فاصبروا» [مسلم:1742] فهل من واجب جنود الله أن يرسلوا أعداء الله بأسرع ما يمكن إلى الآخرة!!

يوم فتح مكة عفا النبي عن المشركين "أعداء الله". أتراه كان مخطئاً في عفوه وصفحه، وعدم إرسالهم إلى الجحيم.

جاء في صحيح مسلم (1730) «كان رسول الله إذا أمَّر أميرًا على جيش أو سرية أوصاه في خاصّته بتقوى الله, ومن معه من المسلمين خيرًا, ثم قال: اغزوا بسم الله، في سبيل الله, قاتلوا من كفر بالله, اغزوا, ولا تغلوا, ولا تغدروا, ولا تمثّلوا, ولا تقتلوا وليدا، وإذا لقيتَ عدوَّك من المشركين فادْعهم إلى إحدى ثلاث خصال, فأيّتهن ما أجابوك إليها فاقبل منهم، وكفّ عنهم, ثم ادْعهم إلى الإسلام, فإن أجابوك فاقبلْ منهم, وكفَّ عنهم, ثم ادْعهم إلى التحوّل من دارهم إلى دار المهاجرين, وأخبرهم أنهم إن فعلوا ذلك فلهم ما للمهاجرين, وعليهم ما على المهاجرين, فإنْ أبوا أن يتحوَّلوا منها فأخبرهم أنهم يكونون كأعراب المسلمين يجري عليهم حكم الله الذي يجري على المؤمنين, ولا يكون لهم في الغنيمة والفيء شيء, إلا أن يجاهدوا مع المسلمين. فإنْ هم أبوا فسلْهم الجزية فإنْ هم أجابوك فاقبل منهم وكفَّ عنهم. فإن هم أبوا فاستعن بالله وقاتلهم». ومن هذا الحديث وغيره قال الفقهاء: لا يجوز قتل غير المقاتلة من امرأة، وصبي، ومجنون، وشيخ هرم، وأشل، وأعمى، وراهب في صومعة..إلخ انظر إلى سمو هذه التعاليم ورقيها، ثم عارضها بما ادعاه الضال المضل لويس. وفي المقابل نقول: لو أردنا أن نسود بياض الصفحات بتاريخ النصرانية الأسود المظلم، المسجور بغياً وجوراً، وقتلاً للآمنين المطمئنين من أبناء دينهم وديننا لملأنا العشرات، بل المئات من الصفحات. وبشهاداتهم واعترافاتهم هم لا نحن. وصدق من قال: رمتني بدائها وانسلت. [↑](#endnote-ref-10)
11. () بالحجة والإقناع، لا القسر والإجبار. وهذا بيّن واضح في التعليق السابق. وبناء عليه فمن الطبيعي أن تبقى فئة بل فئات كثيرة في العالم على دينهم، سواء أكانوا يعيشون تحت ظل الإسلام وسلطته أم لا. لأنه لا إكراه في الدين. وفق هذا المبدأ القرآني سار النبي صلى الله عليه وسلم، ومِن بعده الصحابة الكرام، ثم الخلفاء. والأمثلة التاريخية على هذا وافرة جداً. ارجع على سبيل المثال إلى كتاب الدعوة إلى الإسلام، لتوماس أرنولد. [↑](#endnote-ref-11)
12. () يعلق الأستاذ جون إسبوزيتو على كلام لويس هنا، وعلى كلامه الذي سيرد بعد عدة صفحات: "وفجأة، أو كذا بدا،أضحت أمريكة العدو الأكبر، ومثال الشر، والعدو الخبيث جداً لكل ما هو خير، وتحديداً للمسلمين والإسلام" ص154، يقول إسبوزيتو: هنا يتم تصوير المسلمين في صورة المحرضين، والدعاة طوال أربعة عشر قرناً من الحرب. الإسلام عدواني، الإسلام وأفعال المسلمين تؤخذ على أنها مسؤولة عن الهجمات وحروب الجهاد،على حين يوصَف الغرب بأنه دفاعي، يردّ بهجمات مضادة، والحملات الصليبية والاسترداد. وعلى الرغم من المزاعم القائلة بأربعة عشر قرناً مستمراً من المواجهة، يتم إعلام القارئ بأن أمريكة قد صارت فجأة العدو الأكبر... وإذا كان التهديد المعاصر مفاجئاً فإن القارئ إذن سوف يستنتج منطقياً أن المسلمين لديهم ميلٌ تاريخيٌ لممارسة العنف وكراهية الغرب،أو أن المسلمين عاطفيون،لا عقلانيون، ويعشقون الحرب. اهـ التهديد الإسلامي ص 303. [↑](#endnote-ref-12)
13. () انظر تعليق جون إسبوزيتو على هذا الكلام في ص 151. [↑](#endnote-ref-13)
14. () (1875ـ 1926م) من أعظم الشعراء الألمان. [↑](#endnote-ref-14)
15. () (1895ـ 1998م) كاتب ألماني. [↑](#endnote-ref-15)
16. () (1889ـ 1976م) فيلسوف ألماني. [↑](#endnote-ref-16)
17. () الإمبراطورية الأولى الرومانية،والثانية الألمانية من1871ـ 1918م. و كلمة Reich تعني في الألمانية إمبراطورية. [↑](#endnote-ref-17)
18. () أقول: ليتهما كانا كذلك، لأن المرأة كانت ستتفيأ في ظلالهما معاني الحق، والعدل، والاحترام، والعفة، والطهارة، وليس الاغتصاب، والفجور، والاعتداء الجسدي والنفسي عليها، وما جره ذلك من بلايا وأمراض اجتماعية، وجسدية، يموج بها الغرب وأهله. [↑](#endnote-ref-18)
19. () لا بد أن يكون في علمنا أن الإسلام لم يوجد الرق، بل كان موجوداً قبله، وإن المنة الجّلى التي قدمها الإسلام للأرقاء ثلاثة أشياء: الأول: أنه كان هناك عدة نوافذ، تنتهي بالإنسان إلى الاسترقاق، فأغلقها الإسلام جميعاً باستثناء الرق الآتي عن طريق الأسر،حيث اقتضته عوامل طبيعية تستوجب دوامه،ما دامت هي موجودة. الثاني:أن الإسلام عد الرق أمراً عارضاً،وحث على إزالته عن طريق العتق(تحرير الرقبة)، وعن طريق جعله وسيلة للتكفير عن بعض الذنوب، أو عن يمين حنث فيها الإنسان. الثالث: أوصى الإسلام أتباعه في كثير من الأحاديث والأخبار بأن يحسنوا معاملة الرقيق. منها قوله: إن إخوانكم خولكم، جعلهم الله تحت أيديكم، فمن كان أخوه تحت يده فليطعمه مما يأكل، وليكسه مما يكتسي، ولا تكلفوهم ما يغلبهم، فإن كلفتموهم فأعينوهم. [البخاري]. وفي تلخيص جيد للمسألة يقول محمد فريد وجدي: إن الإسلام وإن كان قد أبقى الرق، فلم يؤيده و لم يقرره، بل وهب الأرقاء حقوقاً لم يحلم بها أحرار الأمم السابقة، ثم تركه وشأنه حتى يزول مقتضيه فيزول هو بنفسه. واعلم أنه في العصر الذي كان الإسلام يقول لمتبعيه: إخوانكم خولكم، كان الفلاحون في أوروبة مثَلُهم كمثل الماشية يباعون مع أراضيهم إلى الأغنياء، وبقي فيهم ذلك إلى القرن الثامن عشر، حتى جاءت الثورة الفرنسية، فأحدثت الحرية الشخصية، واعلم أن الأوروبيين الذين ينادون الآن بسيئات الاسترقاق، ويتهمون المسلمين ودينهم، بما هم وهو عنه براء، كانوا أشدّ الأمم كلَباً على الاسترقاق، وأفظعهم معاملة للرقيق. "دائرة معارف القرن العشرين" 4/282 ، وانظر هذه مشكلاتهم، 54 ـ62، حقائق الإسلام وأباطيل خصومه ص 203 ـ 212. [↑](#endnote-ref-19)
20. () سلسلة جبال في [أفغانستان](http://ar.wikipedia.org/wiki/%D8%A3%D9%81%D8%BA%D8%A7%D9%86%D8%B3%D8%AA%D8%A7%D9%86) وشمال غرب [باكستان](http://ar.wikipedia.org/wiki/%D8%A8%D8%A7%D9%83%D8%B3%D8%AA%D8%A7%D9%86). [↑](#endnote-ref-20)
21. () لاحظ كيف جمع هذا المبطلُ الفتوحاتِ الإسلامية، مع التوسعات الحديثة للروس، موهماً القارئ أنهما إخوة أشقاء لأم واحدة. مع أن بينهما على التحقيق بوناً بعيداً. وهل يُجمع بين من يحيي ومن يميت، ومن ينوّر ومن يظلم! يقول بيجي رودريك: ما إن كان الإسلام يدخل بلداً من البلدان المفتوحة حتى يقبل أهلها جميعاً على اعتناقه ويعاملون معاملة الفاتحين سواء بسواء، ومن احتفظ منهم بدينه لقي أكرم معاملة. فمصر وشمال أفريقيا والصومال وبلاد أخرى كثيرة هي أمثلة على البلاد التي فتحها المسلمون العرب فأسلم أهلها وحملوا الإسلام إلى غيرهم وعاشوا أعزة مكرمين في ظل دولة إسلامية مئات من السنين. فلا مجال إذن للمقارنة بين الفتوحات الإسلامية وبين الاستعمار البغيض الذي يسلب الشعوب كل شيء. من كتاب "قالوا عن الإسلام" للدكتور عماد الدين خليل، الموجود في موقع صيد الفوائد <http://www.saaid.net/> [↑](#endnote-ref-21)
22. () جيمس باركنسون (1755ـ 1824م) طبيب إنكليزي، عالم بمعايش الإنسان في الأزمان القديمة، وناشط سياسي. [↑](#endnote-ref-22)
23. () ألويس ألزهايمر (1864 ـ 1915م) طبيب ألماني، متخصص في الأمراض العقلية والعصبية. [↑](#endnote-ref-23)
24. () قد يكون هذا رأي طائفة من المسلمين، أما أن يجعل عاماً للكل فمرفوض البتة. وماذا يقول لويس إذن عن ملايين المسلمين الذين يعيشون تحت حكم علماني هنا، ونصراني هناك. ولا يصح أن يقال: إن جميع هؤلاء خرجوا من بلادهم مسوقين بعوامل الاضطرار، والنفي، والخوف من القتل، ونحو ذلك. [↑](#endnote-ref-24)
25. () هي مقاطعة [صينية](http://ar.wikipedia.org/wiki/%D8%B5%D9%8A%D9%86) تتمتع بنظام إداري خاص، تقع في أقصى شمال شرق البلاد. عاصمتها مدينة [أورومتشي](http://ar.wikipedia.org/wiki/%D8%A3%D9%88%D8%B1%D9%88%D9%85%D8%AA%D8%B4%D9%8A). [↑](#endnote-ref-25)
26. () هذا كذب على التاريخ، وتحريف للحقائق. إذ لم يكن ما زعمه لويس في يوم من الأيام ذا صلةٍ مباشرة، بالمشاكل الجارية في الأماكن التي ذكرها. يقول تشارلز كلاس، معلقاً على كلام لويس هنا: "في أريتريا الإثيوبية، جبهة تحرير لادينية، يرأسها مسيحي يدعَى إسايس أفويركي، استقلت من إثيوبيا الماركسية بعد ثلاثين سنة من الصراع. عندما كنت أغطي الأحداث في الحرب، لم تذكر حروب العصابات الدينَ على أن له صلة بمطالبتهم بالاستقلال. والحقيقة أن إريتريا كانت مستعمرة إيطالية من عام 1889م، وفي نهاية الحرب العالمية الثانية،منح الحلفاء هذه المستعمرة ـ من دون استشارة سكانها ـ إلى الحاكم الإثيوبي(هيل سيلاسي). وهذا ما رفضه أكثر السكان (المسلمون، والمسيحيون،وغيرهم)".

<http://www.thenation.com/doc/20040913/glass> [↑](#endnote-ref-26)
27. ()هذا افتراءآخر، هل من اللازم والواجب، إذا كنا نعتقد بطلانَ العقائد الأخرى، ونقصانَها ألا نمنح أهلَها حقوقَهم في الحماية وغيرها؟!

إن لأهل الذمة حقوقاً علينا،ألزمنا الإسلام بالوفاء بها،قال «ألا من ظلم معاهدًا, وانتقصه,وكلَّفه فوق طاقته,أو أخذ منه شيئًا بغير طيب نفس، فأنا حجيجه يوم القيامة»[أخرجه أبو داود 2654] وقال: «من قتل معاهَداً لم يرِحْ رائحة الجنة وإنَّ ريحها توجد من مسيرة أربعين عاماً». [أخرجه البخارى 3166]، وأحاديث غيرها. وعليٌّ بن أبي طالب يقول عن أهل الذمَّة: إنما بذلوا الجزية لتكون أموالهم كأموالنا، ودماؤهم كدمائنا. و هذا عمر بن الخطاب ، أوصى الخليفة من بعده وهو على فراش الموت فيقول: «... وأوصيه بذمَّة الله وذمَّة رسوله أن يوفي لهم بعهدهم, وأن يقاتل مِن ورائهم وأن لا يكلَّفوا فوق طاقتهم» ويقول **الفقيه، الأصولي، المالكي، شهاب الدين القرافي: إنَّ عقد الذمَّة يوجب حقوقًاً علينا لهم،لأنهم في جوارنا،وفي خفارتنا، وذمَّة الله تعالى،وذمَّة رسول الله و دين الإسلام،فمن اعتدى عليهم ولو بكلمة سوء أو غيبة في عِرضِ أحدهم, أو نوعٍ من أنواع الأذيَّة، أو أعان على ذلك, فقد ضيَّع ذمَّة الله، وذمَّة رسوله وذمَّة دين الإسلام. هـ الفروق 2/701 (الفرق التاسع عشر والمئة).** راجع للتفصيل كتاب "غير المسلمين في المجتمع الإسلامي" للدكتور يوسف القرضاوي، مؤسسة الرسالة ـ بيروت.

 [↑](#endnote-ref-27)
28. () مؤرخ إنكليزي (1737ـ 1794م)،مؤلف الكتاب المشهور: تاريخ وانحطاط وسقوط الدولة الرومانية. [↑](#endnote-ref-28)
29. () يرد الدكتور جون إسبوزيتو هذا الكلام بقوله: ((يثور غضب أناس كثيرين ـ مؤمنين وغير مؤمنين ـ مسلمين ويهوداً ومسيحيين، وسيخ، وهندوس، عندما يتهدد وجودهُم أو مصالحهم. والمسلمون ليسوا هم القوم الوحيدين الذين يستخدمون الدينَ لإضفاء الشرعية والعقلانية على أفعالهم. والحقيقة أن معظم الشعوب المتحضرة والذين يتسمون عادة بالعطف والتراحم يقبلون الثورة ضد الشر، وكراهية الأعداء باعتبارها استجابةً طبيعيةً ضدّ الجرائم الدنيئة، والأعداء في زمن الحرب، وخطف الرهائن، أو الإرهاب. وفضلاً عن ذلك، هل غابت دروسُ الحروب الصليبية، ومحاكم التفتيش، وموجات الإمبريالية والاستعمار الأوروبي عن الذاكرة؟ وهناك فتراتٌ كانت فيها الباباوات، والملوك، ورجال الكنيسة، والموظفون المدنيون، والجنود غالباً ما يُسبغون على أعمالهم الشرعيةَ باسم الدين، باسم الرب والبلاد، والتاج والصليب)). التهديد الإسلامي، ص 311. [↑](#endnote-ref-29)
30. () استولى عدد من المسلحين السعوديين على [الحرم المكي الشريف](file:///I%3A%5CAdministrator%5CApplication%20Data%5CMicrosoft%5Cwiki%5C%D8%B7%C2%A7%D8%B8) في فجر يوم [1/محرم](file:///I%3A%5CAdministrator%5CApplication%20Data%5CMicrosoft%5Cwiki%5C1_%D8%B8%E2%80%A6%D8%B7%C2%AD%D8%B7%C2%B1%D8%B8%E2%80%A6) /[1400](file:///I%3A%5CAdministrator%5CApplication%20Data%5CMicrosoft%5Cwiki%5C1400)هـ، الموافق لـ[20 /تشرين](file:///I%3A%5CAdministrator%5CApplication%20Data%5CMicrosoft%5Cwiki%5C20_%D8%B8%E2%80%A0%D8%B8%CB%86%D8%B8%D9%BE%D8%B8%E2%80%A6%D8%B7%C2%A8%D8%B7%C2%B1) الثاني/ [1979](file:///I%3A%5CAdministrator%5CApplication%20Data%5CMicrosoft%5Cwiki%5C1979) م، في محاولة لقلب نظام الحكم في المملكة العربية [السعودية](file:///I%3A%5CAdministrator%5CApplication%20Data%5CMicrosoft%5Cwiki%5C%D8%B7%C2%A7%D8%B8) إبان عهد الملك [خالد بن عبد العزيز](file:///I%3A%5CAdministrator%5CApplication%20Data%5CMicrosoft%5Cwiki%5C%D8%B7%C2%AE%D8%B7%C2%A7%D8%B8). اتهم [الخمينيالولايات المتحدة الأمريكية](file:///I%3A%5CAdministrator%5CApplication%20Data%5CMicrosoft%5Cwiki%5C%D8%B7%C2%A7%D8%B8) بأنها المدبّر لهذه الحادثة، وبناء على هذا الاتهام اقتحمت جموع غاضبة مبنى السفارة الأمريكية في [إسلام آباد](file:///I%3A%5CAdministrator%5CApplication%20Data%5CMicrosoft%5Cwiki%5C%D8%B7%C2%A5%D8%B7%C2%B3%D8%B8) في اليوم التالي لبدء العملية، وحطمته ثم أحرقته، وبعد نحو أسبوع من ذلك اقتحمت جموع مشابهةٌ السفارةَ الأمريكية في العاصمة الليبية [طرابلس](file:///I%3A%5CAdministrator%5CApplication%20Data%5CMicrosoft%5Cwiki%5C%D8%B7%C2%B7%D8%B7%C2%B1%D8%B7%C2%A7%D8%B7%C2%A8%D8%B8) وأحرقتها. ولا ندري هل كانت فعلاً أمريكا وراء هذه الحادثة أم لا،لكنا ندري أن اتهام الخميني في تلك الفترة كان سيلقى آذاناً مصغيةً،فالثورة الإيرانية في تلك الفترة كانت في أوج انتصارها، وذروة مجدها، وحاولت كثير من الحركات الإسلامية تقليدها والاستنارة بها، و معروف أن الزعماء الإسلاميين من شمال إفريقيا والشرق الأوسط وجنوب شرق آسيا، جاؤوا إلى طهران لتهنئة الخميني على نجاحه الباهر .ومن الجدير بالذكر أن أحداث الحرم بدأت بعد 16 يوماً على بدء [أزمة الرهائن في السفارة الأمريكية](file:///I%3A%5CAdministrator%5CApplication%20Data%5CMicrosoft%5Cw%5Cindex.php) في [طهران](file:///I%3A%5CAdministrator%5CApplication%20Data%5CMicrosoft%5Cwiki%5C%D8%B7%C2%B7%D8%B8%E2%80%A1%D8%B7%C2%B1%D8%B7%C2%A7%D8%B8%E2%80%A0). انظر التهديد الإسلامي، ص 41، وموقع ويكيبيديا. [↑](#endnote-ref-30)
31. () أي لا ينبغي أن نُساق إلى الجنون، كما سِيقوا هم إليه. نقول: حسناً، وأين ذهبت الأحقاد والكراهية التي أرضعها إخوتنا المسيحيون أبناءهم مع مضغات الغذاء، ونسمات الهواء، والتي انشقت عنها الحروب الصليبية، ومحاكم التفتيش، وغيرها. ولماذا لم توجّه هذه النصيحة، الثمينة إلى حكومة الولايات المتحدة بعد أحداث سبتمبر، وطلبتَ منها ـ وأنت السيد المطاع، المسموع الكلمة عندها ـ أن تتئد وتتروى في حربها على الإرهاب، وألا تجنّ، كما جنّ غيرها. وأنت تعلم، وأنا أعلم، وكلنا يعلم أن المآسي، والكوارث التي جرتها الولايات المتحدة على العالم عموماً، والعالم الإسلامي خصوصاً بعد 11/ سبتمبر، تفوق أصعافاً مضاعفةً الدمارَ، والأسى الذي سببه تفجيرُ البرجين. [↑](#endnote-ref-31)
32. () جون تيلر (1790 ـ 1862م) الرئيس العاشر للولايات المتحدة (1841ـ 1845م). [↑](#endnote-ref-32)